من نوابغ الكُتّاب الاتراك المحدثين:

الشاعر الفيلسوف رضا توفيق بولوك باشي 1868 - 1949

2-2

احسان الملائكة

المتعصبة التي أطلق عليها اسم (الحركة الطورانية) والتي كانت تغذيها سراً ألمانيا بكل الوسائل من أجل تقوية نفوذها في الأراضي التركية وإزاحة نفوذ منافستيها فرنسا وبريطانيا، وقد أدى موقف رضا توفيق الى حدوث مشاحنات بينه وبين تلامذته وبعض زملائه المدرسين ممن يؤيدون التيارات العنصرية، فلم يجد هو وصديقه جناب شهاب الدين بداً من تقديم استقالتيهما الى إدارة الكلية.

كان رضا توفيق سيئ الظن أيضاً بالحركة الثورية التي قادها مصطفى كمال باشا لتحرير تركيا من قوات الاحتلال الأوروبية بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، ولعله كان متأثراً بالدعاية الغربية التي راحت توجه الأنظار الى نزوع مصطفى كمال الى الدكتاتورية والعنصرية أيضاً، ولما انتصرت ثورة مصطفى كمال هرب رضا توفيق الى خارج تركيا عام ١٩٢٢ فوضع اسمه ضمن قائمة المئة والخمسين السوداء ونفي الى خارج تركيا.

وبعد إقامته الطويلة في المنفى أعلن رضا توفيق ندمه على بعض مواقفه السياسية الخاطئة لاسيما موقفه من حركة مصطفى كمال معترفاً بان مسلكه المتطرف ذاك كان من حماقات عهد الشباب وضعف الإدراك السياسي.

وفي الشرق يتعرض كثير من المتعلمين للوقوع في مثل هذه الأخطاء لضعف الوعي السياسي وعدم توفر المعلومات الدقيقة لديهم، ومن الأخطاء الأخرى التي ندم عليها رضا توفيق تأييده لحزب الاتحاد والترقي قبل تسنمه السلطة فقد وقف الى جانبهم أيام مقاومتهم لاستبداد عبد الحميد الثاني وكان لخطبه النارية الملتهبة دور كبير في إسقاط هذا السلطان المتقلب الظالم سنة ١٩٠٩، لكن تكشف فساد حكم الاتحاديين، والمآسي التي جرها حكمهم على الشعب، فتح عيون مؤيديهم فانصرفوا عن تأييدهم او وقفوا منهم موقف المعارض وقاوموا حكمهم، وكان رضا توفيق ضمن الفريق الأخير شانه شأن أغلب أعضاء جمعية (ثروة الفنون) برئاسة الشاعر توفيق فكرت صديقه الحميم.

في المنفى

كان رضا توفيق قد تعرف أثناء عضويته في (مجلس المبعوثان) باستانبول بالأمير عبد الله بن الحسين، فلما اضطر الى الهرب من تركيا عزم على أداء فريضة الحج وفي الوقت ذاته وجدها فرصة لتلبية دعوة كان الأمير عبد الله قد وجهها اليه لزيارته في مكة.

وفي سنة ١٩٢٣ سافر الى مكة وحصل من الأمير على وعد بالحماية اذا ما أقام في الأردن، وهكذا رحل في معية الأمير الى عمان حيث تم تعيينه مترجماً في الديوان الملكي وبعد فترة نُقل الى وظيفة أخرى في مديرية الآثار القديمة، وفي سنة ١٩٢٨ استطاع الرحيل الى الولايات المتحدة مصطحباً معه إبنه وبنته الكبرى وأقاموا في نيويورك مدة تزيد على السنة، وأثناء إقامته هناك شارك في عدد من المؤتمرات العلمية والثقافية، كما نشرت له احدى المجلات الأمريكية مقالة بشأن انطباعاته الشخصية عن رحلته الى الحجاز.

وفي عام ١٩٣٤ أحيل على التقاعد في الأردن، ولما كان قد أعجب ببلدة جونية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط في لبنان فقد اختارها مقراً له وانتقل إليها مع أسرته ولبثوا فيها حتى سنة ١٩٤٣ حين عادوا الى استانبول، وكان رضا توفيق قد قام برحلة قصيرة الى جزيرة قبرص سنة ١٩٣٤ فتهيأت له فيها فرصة طبع اول مجموعة شعرية وقد صدرت بعنوان (سراب عمري).

كانت سنوات النفي ١٩٢٢-١٩٤٣ رحلة آلام وعذاب في نظر رضا توفيق، فقد تعين عليه ان يتحمل الضائقة المالية وهو أمر لم يكن معتاداً عليه، كما اضطر الى تجرع غصص العيش تحت حماية دول أجنبية كلاجئ سياسي فكان ذلك يزيده شعوراً بالحنين الى وطنه ويدفعه الى الندم على ما ارتكب من أخطاء سياسية في ماضي أيامه، تلك الأخطاء التي عرضته لفقدان حريته وخسران أفضل سنوات عمره في المنفى بعيداً عن وطنه وخلانه، مما كتب من قصائد في تلك الفترة القصيرة التالية التي نختار منها بعض الأبيات:

حلّقي أيتها الطيور حلقي هناك حيث ولدتُ
هناك تتلون الجبال بزهور البنفسج
وفي القرى الراقدة على حافات الوديان
تتفتح البراعم الصفر وسط الأشواك

×××

تحتدم أشواقي عند تذكر ساعة الشفق
حين كان عليَّ ان أودع بلدي استانبول
ويثقل صدري همّ عظيم
كلما غردت قمرية محلقة في السماء

ومن القصائد التي توضح آرائه السياسية في أيام المنفى واحدة بعنوان (لحن) يقول فيها:

طفتُ وهود المصائب جميعها
كل إنسان بلغت سمعه شكواي
مازلتُ أبحث عن قدماء أبطالنا
وا أسفاه ضاعت جهودي سدىً

×××

الكرام النبلاء فقدوا كل شيء
أبناؤنا أمسوا عبيداً أذلاء
العرائس المنعمات تحولن الى أرامل حزينات
ليس هناك إلا الخراب وقد ذهب الأحباب

×××

أسماء عظماء أسلافنا لم يعد يتذكرها أحد
ها ان الأمهات يهجرن أطفالهن في مهودهم
الأيتام المساكين خارت قواهم
ولا خلاص من مخالب الظالمين

×××

أي رضا في أي بلاد وقعتَ
هذه الكارثة لا خلاص منها
من اجل وطنك عانيت الف بلاء
اما الوطن فلم يعد فيه غير القبور

بعد عودته الى استانبول في عام ١٩٤٣ انصرف رضا توفيق الى جمع آثاره الأدبية والفلسفية وشرع بنشرها حتى وفاته في كانون الأول ١٩٤٩.

شخصيته

في مذكراته يرسم الكاتب يوسف ضياء اورتاج صورة حية لرضا توفيق فيقول:

«في ضاحية» بييك الجميلة على البسفور كانت دار رضا توفيق بيك ملاصقة لدارنا فانعقدت أواصر الصداقة بين سيدات العائلتين اولاً، ثم تمّ التعارف بينه وبيني انه رجل انيق يهتم بمظهره الخارجي اهتماماً ملحوظاً، له عينان متوهجتان وشعر كثيف، وحاجبان مقوسان. لقد كان إنساناً ظريفاً منفتحاً للناس، تميز بذكاء اجتماعي ملفت للنظر، فإذا كلم المرأة وجدته يتحدث بأسلوب المرأة واذا خالط الشباب تعامل معهم كأي شاب الخ. في احد الأيام سألني: أتحب الأدب؟ قلت: أحبه يا سيدي، كذلك انا اكتب عند هذا طلب مني ان أتلو بعض قصائدي. فبدأت بالقراءة أعجب رضا توفيق بأشعاري وأبدى رضاه عن مقدرتي في ضبط الوزن مع اني ما ازال تلميذا في المرحلة الثانوية. ومن ذلك اليوم صار يطلعني على احدث قصائده قبل أي إنسان آخر «ويواصل يوسف ضياء حديثه فيقول:

«عُرف رضا توفيق بمهارات عجيبة كان يمتلكها، وما كان يعجز عن أي عمل يريد صنعه، على مائدة الطعام مثلاً كان يأخذ ثمرة البطاطا المسلوقة فيعجنها ويصنع من فستق الصنوبر منقاراً يلصقه في وسطها ثم يجعل من الزبيب عينين للطير. واذا بداخل الطبق أمامه طير كناريا على وشك التغريد!! اما عن براعته في التقليد فقد جعلته بطل المجالس المرحة، فمن دون حضوره لا يحلو لقاء للأصحاب، كان يجيد تقليد مختلف الأقوام كالعرب والفرس واليهود والأرمن والارناؤوط، كما يحسن تقليد النساء والأطفال والعجائز الخ..

في أيام إعلان دستور ١٩٠٨ قام مرة بتمثيل دور رجل الباني على المسرح فاتفقت آراء المشاهدين بأنهم لم يروا على المسرح التركي ممثلاً يمتلك كل هذه البراعة في التمثيل، قبل فترة طويلة أجري تحقيق صحفي مع رضا توفيق أُحبُ إيراده هنا اذ انه يوضح جانباً اخر من جوانب شخصيته، سأله الصحفي: أي اللعب أحب اليك؟

– لغتي أنا

– ما أشد الأمور قداسة في رأيك؟

– حقوق الإنسان وعظمته

– أي الحيوانات أحب اليك؟

– لن أجيب فلا أريد ان أكون فظاً!

«هكذا منعه أدبه ان يقول بأن الحمار هو الحيوان المفضل لديه!!»

كان شاعر الحرية توفيق فكرت من اقرب الناس الى رضا توفيق، وقد بدأت صداقتهما منذ عهد دراستها في ثانوية غلاطة سراي باستانبول، وكانا متقاربين في كثير من معتقداتهما وميولهما، كان توفيق فكرت إنساناً جاداً وفي الوقت ذاته كان شديد الحساسية مثل أغلب الشعراء والفنانين، وفي أحد الأيام وقع جفاء بين الشاعرين فانقطعتْ الصلة بينهما، لكن رضا توفيق الذي كان يفهم نفسية صديقه، أراد أن يعيد المياه الى مجاريها، فذهب يزور دار صاحبه، ودق الباب، فخرج الخادم اليه وقال: إن سيده غير موجود في الدار، أدرك رضا توفيق من تردد الخادم بأنَّ صديقه مصمم ألا يراه. فجلس عند عتبة الباب قائلاً: «يبدو ألا مفر من الانتظار سأبقى في مكاني حتى يعود».

كان توفيق فكرت يراقب المشهد من داخل المنزل فرق قلبه وهرع الى الخارج وصافح صديقه وهكذا عادا الى سابق عهدهما من الألفة والوداد.

من دلائل إخلاص توفيق فكرت لصديقه انه نشر قصيدتين في مدحه والتغني بسجاياه كانت أولاهما بعنوان «ذكاء» والثانية عنوانها «نجم الحقيقة» وذلك بعد ان سمع بأن مجموعة من الشبان في أزمير هجموا على رضا توفيق وضربوه وجرحوا رأسه.

وكان الهجوم من تدبير الاتحاديين، لأن الفيلسوف وقف في صف المعارضة ضدهم، بعد ان اكتشف فساد حكمهم وسوء معاملتهم للناس وبعد وفاة توفيق فكرت في سنة ١٩١٥ كتب رضا توفيق قصيدة مؤثرة في رثاء صديقه الراحل، ورد فيها الأبيات التالية:

بلغني ان الرياحين البرية
تفتحتْ على ضريحك الحزين
قدمتُ من بعيد لأمسح على وجهي
بتراب أرضك الطاهرة

××××

قالوا انك تمنيت ان يقف محبوك
عند ضريحك باكين منتحبين
فجئت لأحقق أمنيتك
وأبكي طويلاً ألماً وحسرة

من ناحية أخرى أقسمت هذه الصلة الجميلة بين الصد يقين بشيء كثير من الدعابة والمزاح، كانت أحلى أوقات توفيق فكرت تلك الساعات التي كانت يقضيها مستمتعاً بمواهب صديقه في المحاكاة والتقليد، وفي احد الأيام وقع نظره على مقالة نشرتها إحدى الصحف وكانت مذيلة بعبارة «الفيلسوف رضا توفيق» فلم يستطع ان يمنع نفسه من إطلاق النكتة القاسية التالية: انظروا هذه المرة أصبح يقلد الفلاسفة!!

اجمع الذين يعرفون رضا توفيق على انه لم يكن شخصاً منظماً في حياته الخاصة، والأصح ان يقال انه كان مثالاً للفوضى، ولعل نزعة التمرد التي رافقت حياته في عهد شبابه ذات صلة بهذه الفوضى، كما ان انتماءه الى الطرق الصوفية ينصب في المجرى ذاته ولابد ان ميول والده الصوفية كان لها أثرها في توجهه هو الآخر الى التصوف.

ومن المعلوم ان رضا توفيق كان منتمياً الى الطريقة البكتاشية على ان ذلك لم يمنعه من ان يكون إنساناً عصرياً منفتحاً على الحضارة الغربية، وكثيراً ما صرح بأنه من أتباع الفيلسوف البريطاني هربرت سبينسر، وكان سبينسر من المؤمنين بنظريات دارون في التطور والارتقاء وقد تجلت آراء دارون في كل مؤلفات سبينسر.

ومما يشير الى ميول رضا توفيق الصوفية، تأليفه لكتاب باللغة الفرنسية حول الطريقة «الحروفية» الصوفية، كما تؤكدها قصائده الصوفية التي استخدم فيها أساليب المتصوفة الأتراك وأوزانهم من ذلك قصيدته التالية:

لاتسلني ايها الشيخ فالجواب مشكلة
ولست انوي البوح بكل الأسرار
الحق ليس قمحاً يغمر الحقول
كي أنثره في صحن الجامع

×××

لا حاجة بك ان تشرح لي حكاية المعراج
فلست شيطاناً أبله ولست ملاكاً
أنا إنسان ذو جسد ثقيل
فكيف يتهيأ لي التحليق في السموات؟!

×××

أنا الفيلسوف رضا، أنا لست كافراً
أنا الذي علمت الدين للجميع
لكني أيضاً البهلوان الذي يسير على الحبال
فأنى لي اجتياز السراط المستقيم؟

شعره

أولى قصائد رضا توفيق نشرتها له مجلة «ثروة الفنون» التي كان يحررها الشاعر توفيق فكرت، وتعبر عن أفكار مجموعة من الشعراء الشبان الأتراك المتأثرين بالآداب والفنون الغربية. وكانت قصائده هذه تعالج موضوعات الحب والانفعالات الرومانتيكية ووصف الطبيعة، وهو عموماً انطباعي يميل الى الإكثار من إيراد التشبيهات والمجازات الجميلة.

لكنه بعد ذلك انحاز الى الشعر الصوفي التركي الكلاسيكي وعكست قصائده تأثيرات كبار المتصوفة القدامى مثل الصوفي الكبير «يونس أمره» الذي كان من شيوخ الطريقة البكتاشية، ومعلوم ان شعراء الصوفية يتغلغلون في أوساط الشعب وينفعلون بآدابه ولهجاته، ومثلهم اهتم رضا توفيق بجمع الأغاني الشعبية والأناضولية، وتعلم مختلف اللهجات العامية واستخدم أساليبهم الشعرية في شعره، ولهذا يعد هذا الشاعر ممن بعث وأحيا الشعر الصوفي التركي الكلاسيكي بأساليبه وأوزانه ومعانيه ومن الشعراء الشعبيين الذين تأثر بهم: الشاعر الهجاء سيراني seyrani ١٨٠٧-١٨٦٦ والشاعر الغنائي امراح emrah من شعراء القرن التاسع عشر أيضاً ومع انه اقتدى بهما في شعره الا انه ابتدع قوالبه الخاصة، واستطاع رضا توفيق بهذا كله ان يبث في الشعر التركي الحديث، روحاً طرية ساحرة ولا يمكن ان تتجاوزها الأذان الحساسة أبداً، تميز شعره ببساطة نادرة فكان يدخل القلب دون استئذان، من ذلك المصراع التالي:

أنا اليوم في الثمانين من عمري
أقف وحدي على حافة الهاوية
تخلفت وحدي عن الرفاق
لكني ما أزال على صهوة الحصان

ومع غلبه الأجواء الصوفية على أشعاره، الا انه لم يسقط يوماً في عادة الوعظ الممل، او كتابة الشعر التعليمي البارد، فقد كان بطبعه إنساناً شديد الحيوية، كثير الحركة، مبغضاً للجمود، نافراً من التقولب داخل نماذج محددة ضيقة لا يمكن تخطيها، وحتى شعره الحزين الذي كتبه في المنفى والذي يفيض بالشكوى من الغربة والحنين الى الوطن، فانه كان يتفجر بالحياة ويتدفق بالأحاسيس الملتهبة الصادقة الخالية من أي أثر للتكلف او الصنعة.

ممن وصف شاعرية رضا توفيق وصفاً دقيقاً الشاعر القومي الشهير «حمد الله صبحي» اذ يقول: لا اعرف شاعراً وفق الى التعبير بشكل رائع عن المبادئ التي آمن بها مثل رضا توفيق.

أنا أشبه عبقريته بالنهر المتدفق السريع الجريان، فهو من ناحية واسع وعميق، وهو من ناحية أخرى جارف وشديد الحركة، من هنا لم يتوقف رضا توفيق يوماً عن الكتابة والإبداع، بل ظل أدبه في تطور وازدهار حتى آخر أيام حياته.

آخر ما كتبه رضا توفيق من شعر، وجهه الى زوجته الوفية، نازلي هانم، التي رافقته الى المنفى وتحملت معه جميع متاعب حياته ومنغصاتها:

أوجاعي اليوم لإخلاص منها
لا تبعدي عني يا نازلي
هاك جسي هذا النبض الواهن
المسي اليد الباردة الفاقدة للحياة

آثاره

كتب رضا توفيق الشعر والنقد والدراسات الأدبية والمذكرات والنثر الفلسفي والحكايات والتراجم في مطلع حياته الأدبية تأثراً بالشعراء الأتراك المحدثين وفي مقدمتهم أستاذه في مدرسة غلاطة سراي الشاعر رجائي زادة محمود أكرم، ثم الشاعر التركي الكبير عبد الحق حامد، ومع ان رضا توفيق لم يمتلك نظاماً فلسفياً خاصاً به، الا انه كان يحب ان يلقب بالفيلسوف بسبب كتاباته الكثيرة في المواضيع الفلسفية، وكان ينظم الشعر أيضاً في اللغات الأجنبية الكثيرة التي يحسنها ومنها الانكليزية والفرنسية والفارسية إضافة الى شعره المكتوب بالتركية.

(أشهر مؤلفاته)

– الدروس الفلسفية ١٩١٤
– مفصل قاموس الفلسفة في مجلدين ١٩١٦
– عبد الحق حامد وملاحظات فلسفية ١٩١٨
– عمر الخيام ورباعياته ١٩٤٥
– توفيق فكرت ١٩٤٥
– ما بعد الطبيعة
– مقالات

ضمن فعاليات مهرجان كلاويز الثقافي..إقبال واسع على معرض (المدى) للكتاب

بشار عليوي
السليمانية

ضمن فعاليات (مهرجان كلاويز الثقافي) الذي افتتح في مدينة السليمانية الخميس الماضي، تُنظم مؤسسة (المدى) للإعلام والثقافة والفنون، معرضاً ضخماً للكتاب على قاعة المكتبة العامة في السليمانية، حيث شهد المعرض إقبالاً واسعاً وحضوراً كثيفاً من قبل الأدباء المُشاركين في فعاليات المهرجان، إضافة الى أدباء وفناني وأهالي المدينة.

وتحدث السيد (ايهاب عبد الرزاق) المسؤول عن المعرض قائلاً: تُقيم مؤسسة (المدى) للإعلام والثقافة والفنون ضمن فعاليات مهرجان كلاويز الثقافي، معرضاً شاملاً للكتاب، حيث أفردت اللجنة المنظمة للمهرجان، جناحاً خاصاً للمؤسسة بُغية تمكينها من عرض إصداراتها من الكُتب، إضافة الى مشاركة دور نشر أخرى في عرض إصداراتها، وقد ضم المعرض عشرات العناوين في مجالات الأدب والسياسة والدين وعلم الاجتماع وفي الاقتصاد إضافة الى أدب الطفل.

وقد قُمنا بتنظيم أوقات افتتاح المعرض لفترتين صباحية ومسائية واضعين في الحسبان فسح المجال أمام أكبر عدد ممكن من الزائرين الذين يبغون زيارة المعرض والاطلاع على الإصدارات الحديثة التي ضَمها، كما قامت المؤسسة بتخفيض أسعار الكُتب المعروضة الى ٢٠٪ من سعرها الأصلي.

وفي أثناء تجوالنا داخل أروقة المعرض التقينا بالفنان المسرحي الرائد (أحمد سالار) الذي تحدث عن هذا المعرض بالقول: بادرة طيبة من (المدى) المؤسسة الرائدة في الثقافة والفنون والإعلام، أن تُقيم هذا المعرض الواسع والكبير والغني بالعناوين التي حواها، وكما عودتنا دائماً في جميع المناسبات التي تُعنى بالشأن الثقافي.

كما تحدثت الينا (سرور رشيد سعيد) أحدى زائرات المعرض بقولها: وجدتُ معرض المدى للكتاب قد أخذ جناحاً واسعاً وخاصاً به يحوي بين رفوفه الكثير من الكُتب التي تُلبي شغف القارئ وهناك ملاحظة سجلتها هي أنني وجدت ارتفاعاً كبيراً في أسعار الكُتب المعروضة.

وشاركها الرأي ذاته، الطالب (دلشاد إسماعيل) حيث قالَ: برُغم شمولية المعرض من حيث كمية الكُتب المعروضة، ألا أنها تُعرض بأسعار مرتفعة جداً.

ويُذكر أن معرض دار (المدى) للكتاب، سيستمر افتتاحه بعد ختام فعاليات المهرجان، حتى مطلع الشهَر المقبل.

محطات ثقافية

مسلسل الاجتياح الأردني يفوز بجائزة مسابقة إيمي الأميركية

لوس انجلوس

فاز مسلسل الاجتياح الأردني بجائزة مسابقة إيمي الدولية للمسلسلات الطويلة. وتمنح هذه الجائزة بالولايات المتحدة لأهم المسلسلات في العالم.

وقصة المسلسل تحكي ما قامت به قوات الاحتلال الإسرائيلي من اجتياح مخيم جنين قبل أربع سنوات، وقد فاز بهذه الجائزة من بين خمسمئة مسلسل عالمي.

وكتب قصة الاجتياح رياض سيف وأخرجه شوقي الماجدي، وأنتجه طلال عدنان عواملة.

وكانت معظم الفضائيات العربية قد أحجمت عن بث هذا المسلسل.

وهيمنت الأعمال البريطانية على جوائز إيمي للأعمال التلفزيونية التي أعلنت الاثنين، في حين فاز الأردن والأرجنتين أول مرة بإحدى جوائز إيمي.

مؤتمر دولي حول الفيلسوف العربي محسن مهدي

القاهرة

ينظم مركز دراسات التراث العلمي بجامعة القاهرة وكلية الآداب، بالتعاون مع الجامعة الأمريكية قسم الفلسفة والأدب المقارن، مؤتمراً دولياً حول الفيلسوف العربي محسن مهدي بعنوان «محسن مهدي والفلسفة والأدب وتاريخ العلم».

و المؤتمر الذي يبدأ اعتباراً من ٢٩ تشرين الثاني الحالي ولمدة ٣ أيام، يأتي في إطار الاحتفال بمئوية جامعة القاهرة، والتعاون بين جامعة القاهرة والمؤسسات التعليمية الأخرى.

ويلقي المؤتمر الضوء على المجالات المختلفة التي قدم فيها إسهاماته العلمية في تحقيق ونشر كتب الفارابي بالعربية والإنجليزية، وكذلك الكتابة عن الليالي العربية وترجمته «ألف ليلة وليلة»، باضافة إلى فلسفة ابن خلدون في التاريخ.